المجلة الدولية لنشر البحوث والدراسات
International Journal of Research and Studies Publishing
ISSN: 2709-7064
المجلد الثالث - الإصدار السادس والثلاثون
تأريخ الإصدار: 20 أكتوبر 2022 م

الصورة في العلوم الاجتماعية (من الوثيقة المتعددة إلى الكتابة البصرية)

Image in the social sciences (from the multi- document to visual writing)

إعداد الدكتورة/ عائشة حليم

أستاذة مؤهلة، علم الاجتماع، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة شعيب الدكالي- الجديدة، المملكة المغربية

Email: aicha_halim@yahoo.fr

ملخص:

تميز التواصل البشري منذ القدم، بتطوره وتنوع أشكاله التي تتلخص بشكل عام في الشفوي والمكتوب والمصور. إلا أنه مع الثورة الرقمية، التي بصمت العقود الأخيرة من القرن العشرين إلى اليوم، سجلت الصورة هيمنة كبيرة من خلال اختراقها لمختلف مناحي الحياة، وتصبح بذلك أكثر أشكال التواصل هندسة لعلاقاتنا الاجتماعية.

تكمن أهمية دراسة الصورة في العلوم الاجتماعية، في الاشتغال على المضامين المتنوعة التي تنتجها وتقدمها، والتي تساهم من خلالها في خلق ثقافة بصرية تؤثر على كيفية مقاربتنا للظواهر الاجتماعية.

من هذا المنطلق، تهدف هذه المقالة، إلى إبراز القيمة المضافة لاعتماد الصورة، بمضامينها الثابتة أو المتحركة، ككتابة وأرشيف بصريين، في إنتاج معرفة علمية تواكب تحولات الثورة الرقمية في العلوم الاجتماعية-السوسيولوجيا والأنثربولوجيا- من جهة، وأيضا مساهمتها في تطوير المعرفة العلمية وتجديد العدة التقنية المعتمدة في الدراسات الميدانية لهذه العلوم من جهة أخرى.

وتتلخص الإشكالية المركزية المؤسسة للأهداف السابقة، حول معرفة: كيف تساهم الصورة- الثابتة والمتحركة كفيديو أو فيلم وثائقي- في تطوير العلوم الاجتماعية؟ وما هي أهم الإكراهات التي تواجه استعمالها من طرف الباحثين؟

تمكن المعالجة العلمية للإشكالات أعلاه، من إبراز الجوانب الإيجابية والإضافات التي يغني بها استعمال الصورة، من طرف الباحثين، الأبحاث والدراسات في مجال العلوم الاجتماعية، وأيضا من الوقوف عند طبيعة العوائق التي تطرحها- الصورة- أمامهم على المستوى القانوني والأخلاقي والتقني وسبل تجاوزها.

الكلمات المفتاحية: السوسيولوجيا البصرية، الأنثربولوجيا البصرية، الصورة، الكتابة البصرية، المعرفة العلمية البصرية، التقنيات البصرية، الثقافة البصرية، الأرشيف البصري.

Image in the social sciences (from the multi- document to visual writing)

Abstract:

Human communication throughout history has metamorphosized and changed over time. However, the use of oral, written, and pictorial forms of communication continues today. The digital revolution, which silenced the last decades of the twentieth century until today, the image recorded a great dominance by controlling various aspects of life, and thus became the most engineered form of communication for our social relations.

The importance of studying the image in the social sciences lies in working on the diverse implications that is produced and presented, through which it contributes to creating a visual culture that affects how we approach social phenomena.

From this point of view, this article aims to highlight the added value of adopting the image, with its static or moving contents, as a visual writing and archive, in the production of scientific knowledge that keeps pace with the transformations of the digital revolution in the social sciences - sociology and anthropology - on the one hand, and its contribution to the development of scientific knowledge and renewal of equipment. On the other hand, the technique adopted in field studies of these sciences.

The central problem that established the previous goals is summarized in the knowledge of: How does the image - still and moving as a video or documentary film - contribute to the development of social sciences? What are the most important constraints faced by researchers?

The scientific treatment of the above problems enables to highlight the positive aspects and the additions that enrich the use of the image by researchers, researches and studies in the field of social sciences, and also to stand at the nature of the obstacles that the image poses to them at the legal, ethical and technical level and ways to overcome them.

Keywords: Visual Sociology, Visual Anthropology, Image, Visual Writing, Visual Scientific Knowledge, TechniquesVisual, Visual Culture, Visual Archive.

مقدمة:

شكل التواصل البشري تميزا خاصا عن باقي الكائنات الأخرى في الطبيعة، بتنوعه وتجدد آلياته وأيضا بوظائفه الغنية. وقد عكس التطور المستمر للعقل وإبداعاته في جميع المحطات التاريخية، ليسجل مع عصر التكنولوجيا اللامحدودة ثورة جديدة قلبت تصورات الإنسان لمفاهيم الزمان والمكان وأثرت على استعمالاتهما في جميع المجالات التي ينتج فيها ويتفاعل مع الآخرين.

أمام الحضور القوي لتأثيرات الثورة الرقمية، سنتوقف عند الصورة وما يشكله حضورها من أهمية في الحياة العامة كما هو الشأن في حالة الزواج وكل المناسبات العائلية، حيث تدخل الصورة الفوتوغرافية في مسار التبادلات الطقسية التي ساهمت في إبداع وظهور "الصورة الذكرى" (Bourdieu, 1965) وباعتبارها واحدة من أدوات التواصل الأكثر استعمالا التي عرفتها البشرية منذ القدم. فقد اتخذت أشكالا متعددة تراوحت بين النقوش الصخرية والوشم والصور العائلية والأرشيفات والذكريات المتنوعة...إلخ، وتطورت الصورة عبر الزمن وتنوعت تمظهراتها إلى أن أصبحت السمة التي تميز عصرنا بشكل كبير.

وتبرز أهمية دراسة الصورة في العلوم الاجتماعية، إلى الاختراق الكبير لها في كل مناحي الحياة اليومية، وأيضا نظرا للمكانة التي تحتلها فيها اليوم بشكل لم يسبق لها أن عرفته في أية محطة تاريخية من حيث استهلاكها ووثيرة إنتاجها. لتصبح ثقافة الصورة بما تحمله من رمزية وسلطة، من أكثر أشكال التواصل هيمنة في علاقتنا، فعوضت التحية والتهنئة والرسالة النصية وغيرها من لحظات التواصل التي كانت تتميز بنوع من اللمسة الخاصة بصور متشابهة يتقاسمها الكثيرون عبر أنحاء العالم وفي وقت وجيز، وأضحت وسيطا حقيقيا، و"بهذا فإن الفتوغرافيا والسينما والتليفزيون يقيمون جميعهم علاقة "توسطية" بين الإنسان والآخرين، علاقة مع الأشياء ومع ذاته" (غودار، 2019).

ساهم الاستعمال المعمم للصورة في الحياة اليومية(La Rocca, 2007/1) إنتاجا، استعمالا، استهلاكا وانتقادا، في تقليص الحدود بين الفضاء الخاص والعام. فبين صور الإشهار والإعلانات ولوائح المشاريع والجداريات وكل أنواع الصور التي تؤثث مدننا، تحولت هذه الأخيرة إلى مصنع لا متناهي من "معارض الصور" التي تحاصر حقلنا البصري وتوجهه بشكل لا واعي أحيانا كثيرة. حيث ساهمت الثورة الرقمية التي ابتدعتها الإنسانية في خلق علاقة جديدة مع نفسها ومع العالم الذي تغيرت طريقة إدراكنا له بشكل كبير (غودار، 2019).

لقد أدت التحولات التي تعيشها البشرية في سياق مفرط في التواصل، إلى خلق "مجتمع شفاف أصبح من الصعب داخله إخفاء شيء ما أو الاحتفاظ به في سرية وصولا إلى القدرة على تحديد مكان الشخص" (غودار، 2019)، وفي أي نقطة ولحظة يتواجد فيها، أو على العكس من ذلك من خلال البعد اللامكاني المعاش في التجربة الفردية للسفر في سياق الوفرة والاستهلاك المنمط الذي تمنحهما الصناعة السياحية(Agier, 2015) .

من هذا المنطلق، **تهدف هذه الورقة العلمية** إبراز القيمة المضافة للصورة في العلوم الاجتماعية، وخصوصا السوسيولوجيا، أمام الحضور الملفت لها في الحياة اليومية، والذي لا يقتصر فقط على الأشخاص العاديين، بل شكل نقطة التقاطع حتى مع المجالات الأكثر تنظيما والمحكومة بقواعد منهجية تفرضها الحقول العلمية والمعرفية التي تشتغل فيها سواء في مجال العلوم الدقيقة أو العلوم الإنسانية والاجتماعية. هذه الأخيرة التي ترك فيها، على سبيل المثال علم الاجتماع البصري والسينمائي من خلال اشتغاله على مواضيع الحياة اليومية،

بصمات كثيرة (Sebag Joyce, 2018)، سواء كمنهجية للاشتغال أوكمحاولة لتفكيك اليومي وتفاصيله عبر ما تقدمه من معطيات مجمعة من الميدان، أو عن طريق اتخاذها موضوعا للبحث وكشف مضامينها وسياقات إنتاجها من جهة، وتهدف الكشف عن أهم الإكراهات التي تواجه استعمالها في المجال العلمي من طرف الباحثين من جهة أخرى.

وفي هذا السياق، **تطرح الإشكاليات الرئيسية الموجهة لعملنا**، والتي نجملها في التساؤلات التالية:

كيف تفاعلت العلوم الاجتماعية والسوسيولوجيا خاصة مع الصورة؟

كيف ساهمت الصورة واستعمالاتها في تطور البحث العلمي في مجال السوسيولوجيا والأنتروبولوجيا؟

ما هي القيمة المضافة للصورة في مسار ونوعية الإنتاج العلمي ؟

هل يمكننا الجزم بانتقال الصورة من وثيقة للإثبات في المجال العلمي إلى إنتاج خطاب علمي بصري؟

ما هي الإكراهات التي تواجه استعمال الصورة كأداة للإنتاج العلمي السوسيولوجي والأنتربولوجي؟

أولا: العلوم الاجتماعية والصورة: التلازم التاريخي واختلاف المسارات

تفرض معالجة الصورة في علاقتها بالمجالات العلمية، تحديد كيفية استعمالاتها في علاقة بالظواهر التي ستتخذها هذه العلوم ميدانا للدراسة والتحليل. فارتباط الصورة والفيلم بالبحث العلمي هي مسألة قديمة، بل وشكلت نقطة مهمة لتطوير إحداهما للأخرى في مجال الطب والهندسة والفيزياء....إلخ. هذا وارتبط استخدامها في العلوم الاجتماعية من خلال الاهتمام بالظواهر الاجتماعية ذات الارتباط بتاريخنا، بأساطيرنا وأيضا بمختلف أشكال التمثلات والعلامات/الرموز البصرية التي ترافقنا كما رافقت تاريخ الإنسانية بأسره (JOLY, 2013).

لقد كان لعلماء الأنثربولوجيا سبق في التعامل وبشكل كبير مع التصوير الفوتوغرافي، حيث نجد كلا من "مالينوفسكي"، "ماركريت ميد"، "كلود لفي ستراوس" وغيرهم كثير، من الباحثين الذين استندوا في أبحاثهم إلى جعل الصور والتصوير حاضرين في نقل العديد من الممارسات والطقوس...إلخ التي ارتبطت بالمجتمعات التي أخضعوها للدراسة والتحليل. إذ منذ ما يزيد عن قرن ونصف من الزمن طرح مشكل تعريف الصورة الفوتوغرافية في صيغة نقاش تقني حول ما يجب أن تحتويه كمضمون وأيضا في علاقته بالواقع(GARRIGUES, 2000) . هذا الأخير الذي توزع حضور الصورة ومفهومها فيه بين ما تحمله من بصمة بصرية تعكس كل ما أنتجته تفاعلات العلاقات الاجتماعية للأفراد وبين ما تنتجه من موضوعات في صورتها المتخيلة أو الواقعية (JOLY, 2013) .

ترتكز الصورة الفوتوغرافية في الدراسات السابقة على النظر إلى الإنسان كأثر وبصمة متنوعين، الأمر الذي تعكسه العديد من الأرشيفات المؤسسة للتاريخ والذاكرة، والتي يخضعها الإنساء لمنطق الانتقاء والفرز ولإرادة الحفاظ بين ما ينظر إليه باعتباره مهما أوغير مهم، وبين ما يدرج في خانة السري والإخفاء، أوما يمكن يفرج عنه للعموم(ISRAEL, 2010) . وتبرز الصورة في هذا السياق وكأن تاريخ الدراسات الأنثربولوجية والسوسيولوجية هو تاريخ الصورة بامتياز. ف "تاريخ صور الاجتماعي بدأت مع الصورة الفوتوغرافية، وقد ولدت في نفس الفترة تماما مثل السوسيولوجيا أواسط القرن التاسع عشر." (La Rocca, 2007/1) ليولد هذا التلازم الصورة كأداة بحث لجمع المعطيات من الميدان أو كمادة أرشيفية.

فالاعتماد على الأرشيف، في صوره المتعددة، في العلوم الاجتماعية ليس بحديث، حيث تعود أكثر الدراسات الكلاسيكية المؤسسة للسوسيولوجيا التطبيقية إلى الدراسة المهمة التي أنجزها كل من "زنانيكي وطوماس" حول الفلاح البولوني التي شكل

فيها الاشتغال على وثائق المهاجرين ورسائلهم أرضية صلبة لتحقيق الفهم المعمق المنطلق من الذوات وتجاربها الخاصة (ISRAEL, 2010). ويمكن ترجمة هذا تنوع الأرشيفات من خلال المكونات التي عملنا على تجميعها في الخطاطة رقم1، كما هو مبين أسفله.

خطاطة رقم: 1 استعمالات ودلالات مفهوم الصورة

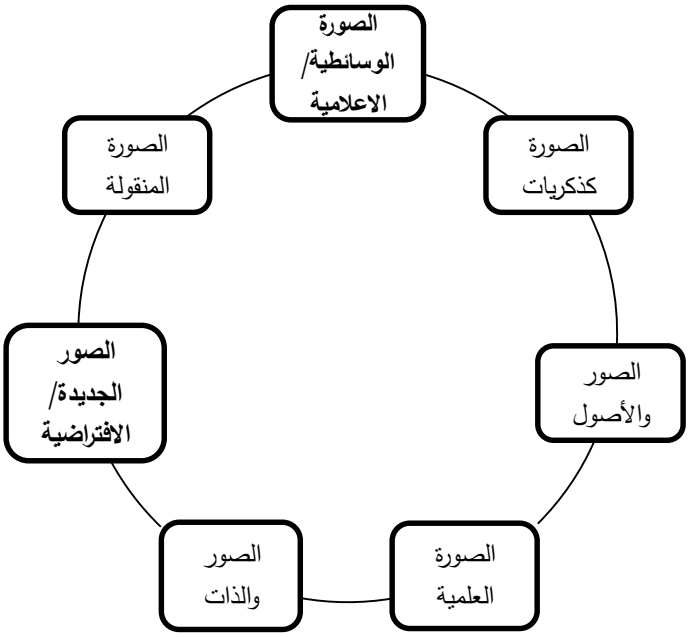

المصدر: بتصرف من الباحثة JOLY Martine, Introduction à l'analyse de l'image, 2ème édition, Armand Colin, 2013, pp11-18.

تبدو الصورة في تعدد مفاهيمها واستعمالاتها كخطاب بصري مركب من عدد من العلامات، فهو لغة ووسيلة للتعبير والتواصل الموجه إلى الغير، حتى لو كان هذا الأخير هو الذات نفسها. وتكمن وظيفة هذا الخطاب البصري في أن يصبح مضمونه مفهوما وقابلا للتشفير من قبل من يوجه إليهم. إذ يشكل الانتقال من الإدراك البصري إلى اللغة المنطوقة ومن المنطوق الشفوي إلى البصري، يشكل أهم التحديات التي يطرحها استعمال الصور في البحث لإنتاج خطاب علمي يحظى بالمصداقية كغيره من الخطابات المستندة على النصوص المكتوبة، دون نسيان أن السلطة التي تتمتع بها الصور تستطيع بموجبها تحويل النصوص المكتوبة إلى صور والعكس صحيح(JOLY, 2013) . ويتوقف تحقيق هذا الغرض بمدى تمكن الباحثين من العناصر المؤسسة للبحث البصري في الميدان، والتي يمكن إجمالها مع "فابيو لاروكا (La Rocca, 2007/1)" في العناصر التالية:

1- تعلم ترجمة الصور إلى مفاهيم سوسيولوجية؛
2- إبداع الصور، تصنيفها وتقديمها في صيغة الأفكار التي يود الباحث (ة) التعبير عنها بالألفاظ؛
3- العمل المكثف في الميدان من أجل الوصول إلى مرحلة الجمع بين نظرة العالم للباحث والذوات الملاحظة، وتحقيق الفهم المعمق الذي يقتضيه البحث السوسيولوجي.

ويرتبط ضبط هذه العناصر بالجانب الذي يود الباحث(ة) دراسته، من خلال توجيه الاشتغال على مستويين اثنين: السوسيولوجيا بواسطة الصور، أو السوسيولوجيا حول الصور.

من خلال المستويين معا، يسجل حضور الصورة في البحث السوسيولوجي وإن اختلفت زاوية المقاربة، مما يسمح لنا بالتأكيد على التلازم والحضور القوي للصورة في صلب اهتمام العلوم الاجتماعية عامة. الأمر الذي يدفعنا إلى التساؤل بلغة "بورديو" حول "هل ما ننطق به هو ما نود قوله"(BOURDIEU, 1982) ، أي هل ما تتضمنه الصورة هو ما نود تصويره؟ وبالتالي ستحمل الصورة سلطة معينة انطلاقا من المكان الذي أخذت منه أو الموضوع الذي تقدمه؟

ثانيا: الصورة وتطور البحث السيولوجي والأنتربولوجي

يؤكد التلازم المعلن عنه بين الصورة والعديد من العلوم الاجتماعية، وإن اختلفت طبيعة الاستعمال، بين وظيفة التوضيح كما أراد لها الأنثربولوجيون والفهم المعمق ومحاولة اللحاق بالظاهرة في سيرورتها كما هو الشأن بالنسبة للباحثين في السوسيولوجيا، على الأهمية البالغة التي شكلتها الصورة في تكوين المعرفة العلمية في هذه العلوم. وهي الأهمية التي تضاعفت في العقود الأخيرة في العديد من الأعمال الأكاديمية في العلوم الاجتماعية، حيث تم خلق مجموعات للعمل في الجمعيات العلمية متخصصة في الاشتغال على الصورة والمعرفة البصرية وأفق تطويرها أكثر للبحث العلمي، فضلا عن خلق مجلات جديدة متخصصة للإنتاج العلمي البصري(RIOM, MEYER, & HUMMEL, 2017) .

أدى التوسع المعولم لاستعمال الصورة في العلوم الاجتماعية، إلى الانجذاب القسري في اتجاه اقتصاد جديد متعدد الأشكال للمعطيات. حيث أصبحت الأدوات البصرية تقنية مهمة لجمع المعطيات، وفي نفس الآن العمل على تحليلها وتقديمها في صيغة نتائجنهائية. كما تسمح لجمهور الباحثين، بفضل ما تمنحه هذه المعطيات المصورة المجمعة ميدانيا، الحصول على مادة غنية تترجم أشكال التفاعلات البين ذاتية في مساحتها السياقية التي أنتجتها، وهو الأمر الذي يضع السوسيولوجيا البصرية أمام إمكانات لبناء معرفة جديدة(Sebag Joyce, 2018) .

من هذا المنطلق، ستكشف المعارف الجديدة، والتي تدخل في صلب اهتمام العلوم الاجتماعية بشكل عام، عن التساؤلات المقلقة التي ستواكب تغير نظرة الإنسان لذاته وتاريخه ولكل الأماكن المشتركة التي يتقاسمها مع الآخر، ويدخل عبرها في علاقة شخصية مع الكاميرا. وستنتج هذه النظرة البصرية عددا كبيرا من التأويلات التي ستطرح، على السوسيولوجيا كما باقي العلوم الاجتماعية، إشكالية التعامل مع هذه المعطيات المصورة كمصدرمهم للمعرفة، ويخضع لمنطق القراءة الذاتية والمعنى الذي يعطيه الفاعل لفعله وللعالم المحيط به. فكيف ستسعف الصورة الباحثين السوسيولوجيا، على سبيل المثال، في الوصول إلى الخفيفي العام الاجتماعي وفهمه أمام هيمنة التأويلات الشخصية ؟ وما هي وظائف الصورة في السوسيولوجيا فهل هي:

منهجية علمية جديدة ؟

أم وثيقة متكاملة مع وثائق أخرى أم أنها تعد وثيقة مستقلة بذاتها ومضمونها؟

موضوع للدراسة أو منهجية تساعد على دراسة الظواهر الاجتماعية؟

خطاب نوضح من خلاله النص المكتوب والمنطوق أم أنها كتابة مستقلة وخطاب مكتف بذاته؟.

ثالثا: الكتابة البصرية قيمة مضافة للعلوم الاجتماعية

يسمح استحضار أهمية التقنيات البصرية في مجال البحث السوسيولوجي، بشكل خاص، بإقرار التجديد الذي تحمله للعلوم الاجتماعية برمتها، وذلك بفضل ما تسمح به من إمكانات لإغناء المعرفة العلمية، خصوصا إذا علمنا بأنه لا يمكننا التردد في الحديث عن التفكير البصري المرافق لاستعمال هذه العدة التقنية. فما دام" أنه يوجد بعد بصري للتفكير من جهة، وما دام أن لا لغة بدون تفكير كما بين ذلك "ميرلوبونتي" في فينومينولوجيا الإدراك، يتحقق التواصل بواسطة هذه اللغة التي هي الصورة الفوتوغرافية والتي تشكل التفكير البصري من جهة أخرى(GARRIGUES, 2000) . وهذا الأخير -التفكير البصري-، الذي يحيل على إدماج بعد بصري، ويرتبط في جانب منه بالذاكرة والذكريات وبالتصوير الفوتوغرافي، يتدخل بشكل كبير في تحديد الوظيفة العقلية عن طريق تجميع الصور وتحليلها في علاقات مع مجموعة من العناصر المؤثثة لمعطيات الواقع المصور والواقعي الخام.

1- التقنيات البصرية : آلية لإنتاج معارف علمية جديدة

تتعدد الإضافات التي تجنيها العلوم الاجتماعية، وعلى الخصوص السوسيولوجيا، من استعمالها للتقنيات البصرية وانعكاساتها الإيجابية، وذلك عبر مختلف الأشكال التواصلية معها وطرق استعمالها في الميدان، وتبرز أهم نقط اللقاء في العناصر التي تتضمنها الخطاطة رقم2 أسفله.

خطاطة رقم: 2 أشكال اللقاء والتواصل مع الصور

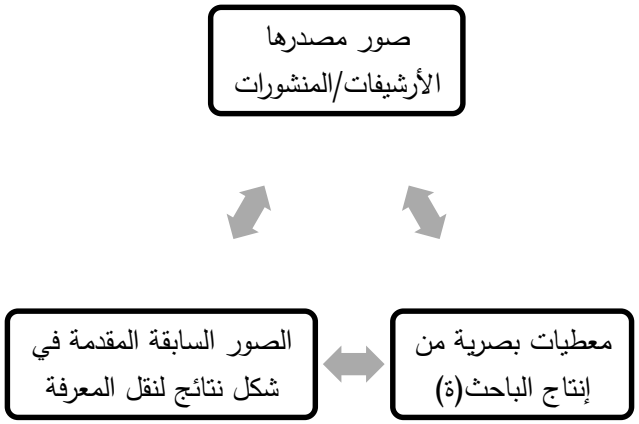

المصدر: وبتصرف من الباحثة **RIOM Loïc, MEYER Michaël et HUMMEL Cornelia**, « Une « éthique visuelle » pour les usages de l'image dans l'enquête en sciences sociales », Op. Cit., pp : 52-53

يبدو جليا، أن مصادر المعطيات البصرية تعتمد على مكونات متعددة، منها ما يكون نتاجا للقاء الباحث(ة) ولجوءه إلى مصادر قد يجد لها أثرا في الأرشيفات بشتى أنواعها المؤسساتية منها والخاصة، وأحيانا يطلب الباحث(ة) من المشاركين/(ات) في البحث أن ينتجوا صورا، من خلال ممارساتهم الخاصة التي تترجم عبر صور العائلة، أو فيديوهات السفر...إلخ. إلى جانب المصدر السابق نجد للمعطيات البصرية التي تكون من إنتاج الباحث(ة) ذاته(ا) بشكل مباشر من ميدان الدراسة ومع عينة البحث، إذ يتم في هذه التجربة الميدانية التقاط صور أو تصوير أفلام تبعا لما حدد الباحث(ة) في إشكاليته(ا)،

فيكون بذلك هو من يرسم زوايا صوره الفوتوغرافية وإطاراتها ويختار الأشخاص والأماكن بوعي منهجي دقيق. وأخيرا هناك مصدر ثالث تعكسه الصور التي يجدها الباحث مجسدة في نتائج الأبحاث العلمية السابقة لعمله، وهي الأبحاث المنجزة من طرف باحثين آخرين وفي فترات زمنية مختلفة وتكون غالبا مقدمة من خلال أعمالهم العلمية ومتقاسمة مع جمهور الباحثين والعلماء.

يوحي تعدد المصادر، المصورة والمنتجة للمعطيات في العلوم الاجتماعية، إلى أن التصوير الفوتوغرافي يقدم تسجيلًا موضوعيًا للظواهر المدروسة، والمخاطر المطروحة تتمثل في كيف يمكن أن تنقل القيم المجردة الغير قابلة للتصوير؟ بعبارة أخرى، يتطلب العمل على فهم تعدد الألوان والغموض الذين تحملهما الصور، وبذل الكثير من الجهد لمساءلة دقتها وتعقيدها (CARDI F. , 2018).

1-1 التقنيات البصرية: معيار الشمولية في إبراز الخفي من الظواهر الاجتماعية

يضع التنوع في المصادر البصرية أمام الباحثين مادة غنية من المعطيات للتعامل معها وتحليلها، إذ يسمح استعمال الصور الفوتوغرافية والفيديو كوسيط للتعبير عما يعنيه الاجتماعي، وذلك بالكشف عما يظل خفيا في هذا الأخير. فعندما يعمد الباحثون إلى نشر أعمالهم في صيغة بصرية فهم لا يقومون بذلك كي تكون أكثر من الكتب وتصل إلى جمهور واسع، ولكن نظرا لكون هذه الصيغ الجديدة قادرة على القول، وبطريقة سريعة، أشياء أكثر من المكتوب(DURAND, 2001/4) .

فالكثير من الجوانب التي يتم إغفالها عندما يتم تحويل نص شفوي إلى نص مكتوب أثناء إجابات المشاركين (ات)، عبر أشكال المقابلات أو أجوبتهم من خلال الاستمارات، سيتم تجاوزها، بل وستنقل وضعية البحث كما تنجز في الميدان مع المبحوثين باستحضار الكثير من التفاصيل التي يتم فقدانها في النص المكتوب أو عبر اختزال الحقيقة في صيغة أجوبة عينة البحث على شكل مبيانات، جداول أو أرقام.

هكذا، فإن استقدام التقنيات البصرية إلى العلوم الاجتماعية، سيعطي دفعة أساسية وقيمة للبحث العلمي وللنتائج التي يتم التوصل إليها وفقا للمبادئ العلمية، حيث سيساهم التصوير الفوتوغرافي في عصرنة المعرفة العلمية(ROUILLE, 2005) ، وستقدم السوسيولوجيا، على الخصوص، نفسها ككتابة مختلفة تدمج المنظور السينمائي في استنطاقها للظواهر بشكل مختلف من خلال اشتغالها على الدلالات، التي تحملها كل من الصورة والصوت، وتضع الباحث(ة) في قلب الكتابة السينمائية ولا سيما كتابة سينما الخيال (Sebag Joyce, 2018) .

فالتجديد الذي طال قواعد إنتاج وتقديم المعرفة العلمية، لا يعني أن آليات التواصل الكتابي سيتم نفيها عندما سترجح كفة التواصل الشفوي المصور، بقدر ما يبرز أن ما يمر عبر هذا الأخير جيد وأنه يكون مرفوقا وغنيا بالحركات، رنة الصوت، بإيقاع ووثيرة الكلام، وهي كلها لحظات تواصلية تقدم الكثير للقراءة السوسيولوجية التي تصبح فقيرة عند ما يتم تحويلها – اللحظات التواصلية- فقط إلى نص مكتوب (BERTEUX, 2010) .

ينطبق الشيء نفسه، على نتائج الأبحاث الكمية التي تقدم معطياتها في النهاية باعتبارها "خلاصة الخلاصات" (DE SINGLY, 2012)، وذلك نتيجة لما تفقده الإحصاءات التي تقدم في شكل جداول أو مبيانات من معطيات مبتورة من السياقات التي ساهمت في إنتاجها، الأمر الذي يجعلها تتسم بنوع من السطحية وتحتاج إلى الكثير من التحليل والتأويل.

تطرح المحدودية، التي تخلقها عملية تحويل مجريات البحث الميداني والمعطيات المجمعة منه، مشكلة الموضوعية بشكل كبير. فتحويل الشفوي، منتوج المقابلة والحوار، إلى نص مكتوب في غياب الحيثيات المنتجة له،

يخلق تأثيرات تقوض من قيمة العمل العلمي المنجز، ويبدو ذلك من خلال الشكل في صيغة " أنا لا أتكلم هكذا" أو في العمق من خلال "ليس هذا ما أود قوله"(BLANCHIT, 2007) .

لتجاوز الارتباك في الفهم، تحتفظ التقنيات البصرية على كل الآثار والبصمات المصاحبة للحوار الشفوي مع المبحوثين(ات) سواء كانت صورا جسدية- حركة، وما له علاقة بالأصوات والموسيقى التي يرتبط بها الباحث مع تطور العمل، أو ما يأتي في صيغة بصمات للكلمات بكل ما تتضمنه من أفكار وتعليقات أو توضيحات، وهي كلها بصمات تسعف في الفهم والإحاطة بمكونات العملية التفاعلية كما تتم في الواقع. الأمر الذي يجعل من التصوير مصدراً مشروعاً للمعرفة في العلوم الإنسانية عمومًا وعلم الاجتماع بشكل خاص، إلى درجة يصبح – التصوير- موضوعا ومنهجية مشروعة للعملية الاستقرائية (CARDI F. , 2015).

يسمح تبني علم الاجتماع للمنهجية البصرية، كأداة للبحث تستند إلى إنتاج الصور وما يرافقها من رموز غنية بالسرد، فضلا عن تسجيل الأفلام، بالكشف عن معطيات اجتماعية يتم استخراج معلوماتها من المعطيات السمعية والبصرية، باعتبارها مجموعة من الأبحاث التي تتضمن وصفًا شاملاً للظواهر الاجتماعية في سياقها ومحددات الظرفية التي مرت فيها. بمعنى استحضار كل المكونات في صيغتها الشمولية التي تسمح بالفهم المعمق للظواهر الاجتماعية المدروسة.

تقدم العناصر الجديدة، التي تدرجها المنهجية البصرية في تحقيق عملية الفهم، فرصة الإقرار بالقيمة المضافة لهذه المناهج والتقنيات في السوسيولوجيا، وذلك من منظور الشمولية التي تميز مقاربتها للظواهر الاجتماعية والتي تدخل بشكل عام في المنعطف البصري(PAUWELS, 2000) الذي لحق جميع العلوم الاجتماعية، والذي فتح المجال أمام إعادة صياغة اللغة الفنية للتحرير في صيغة مونطاج وبناء سردي جديد يوجههما هابيتوس الباحث(ة) السوسيولوجي(ة) (Sebag Joyce, 2018).

2-1 التقنيات البصرية: دعامة لإرساء منهجية تشاركية في البحث العلمي

يضع استعمال التقنيات البصرية في البحث السوسيولوجي والعلوم الاجتماعية الأخرى الباحثين أمام شروط عمل جديدة، وفقا للوضعية التي تؤسس علاقتهم بالمبحوثين، والتي تصبح معها الأبحاث المنجزة نتاجا لنشاط ملموس يشارك فيه الباحثون والموضوعات التي يشتغلون حولها معًا. وتسمح عملية البحث هذه كنشاط مشترك ،يولد علاقة خاصة مع الزمان والمكان، بتعميق الثقة وسهولة التعايش بين طرفي عملية البحث في سياق مبني على المشاركة، وفي إطار العملية التفاعلية التي تهدف التعمق والإنصات الجيد للكشف عن السنن الذي سيشفر من خلاله الباحثون الظواهر الاجتماعية المدروسة.

من الواضح إذن، أن الاستعانة بالأدوات البصرية يساعد على تقريب المسافة أكثر بين الباحثين والمبحوثين، كما تعمل كتقنيات للبحث على تسهيل عمل الميدان، بل وتعد هذه التقنيات البصرية وسيلة فعالة للتوثيق ومصدرا للتعاون المتجانس مع المبحوثين من خلال ما تمنحه من "مشاركة" ومساعدة لتصوير لقطات وتسجيلها بشكل تشاركي.

2- من الصورة كوثيقة إلى الكتابة البصرية: البحث العلمي والمنهجية البصرية

رافق اعتماد العلوم الاجتماعية والسوسيولوجيا على الخصوص للتقنيات البصرية نوع من الخلط بين الكتابة العلمية والأدبية، وقدمت الممارسة السوسيولوجيا على سبيل المثال باعتبارها نوعا من الكتابة الأدبية التي يتم فيها مزج العديد من الأساليب والرموز مع أشكال متنوعة في الكتابة واللغات.

غير أن اعتماد البعد البصري في معالجة الظواهر الاجتماعية لا يتم اللجوء إليه كإضافة ساذجة غير محكومة بتصور علمي يبرر هذا الاستدعاء المنهجي الجديد، بل على العكس من ذلك تصبح كتابة السوسيولوجيا من خلال الصور منظوراً يدمج الأدوات الكتابية ويحاول في نفس الوقت التعامل مع الطابع متعدد الحواس للواقع الاجتماعي الذي لا يمكن اختزاله إلى نطقه أو طابعه الكتابي الوحيد.

ويعد استحضار الصور التي تستعمل الإمكانات الحقيقية للتقنية بمثابة توسيع واع لأفق قراءة الواقع الاجتماعي. فالبصري ليس شيئا أخر غير المقروء، حيث تلجأ الذوات في كل الأزمنة وفي كل الأمكنة إلى اعتماد شبكة للقراءة تستند في تركيبتها وتصورها على نظام من قواعد إعادة إنتاج الواقع الذي يحكم الصورة الفوتوغرافية الشعبية، وهو ما يعطي الدلالة الحقيقية للتعريف الاجتماعي للصورة(BOURDIEU P. , 1965) .

وفي خضم تعدد المواقف والرؤى، حول جدوى انتقال استعمال البصمات الفنية والجمالية عبر التقنيات البصرية، من مجرد وثائق استثمرت لإغناء البحث العلمي في العلوم الاجتماعية برمتها واستعملت كدعامات تكميلية فقط، تبرز آراء أخرى القيمة العلمية لاعتماد هذه الدعامات البصرية، من أجل وصف العوالم المدروسة وتأويلها بطريقة أكثر شمولية وموضوعية. إذ يتم النظر، من خلال نتائج الأبحاث والدراسات التي اعتمدت منطق التفكير البصري، إلى "علم الاجتماع الفيلم والبصري كأحد الصياغات الممكنة للعلاقة بين البحث والكتابة العلمية والعوالم الاجتماعية"(Sebag Joyce, 2018) .

يتجاوز استعمال التقنيات البصرية، ذلك التصور البسيط لإضافة تقنيات جديدة، إلى الوقوف على حقيقة أن هذه الأخيرة تستطيع تمثيل المفاهيم العلمية وتنظيم المعلومات في شكل صورة أو فيديو. ووفق هذا المسار يطال الأمر عرض الصور المنتجة في الميدان كوثائق حاملة لمضامين مكتفية بذاتها، بل ويسمح في الصيغة النهائية للأبحاث بعرض نتائجها في شكل نص سوسيولوجي مرئي(La Rocca, 2007/1) ، قابل للقراءة العلمية من طرف جمهور الباحثين ويمكن نشره وتعميمه على غرار الطريقة المتبعة من طرف الباحثين فيما يتعلق بالنص المكتوب.

1-2 الصورة (الثابتة أو المتحركة) أداة إنتاج المعرفة العلمية

تساعد مختلف التقنيات التي يستعملها الباحثون في جميع الحقول المعرفية على جمع المعطيات بشكل عام أو تقديم توضيحات، والتقنيات البصرية لا تحيد عن هذه الوظائف الأساسية، إذ يبتغي الباحثون من وراء اللجوء إليها جمع أكبر قدر من المعطيات التي تسمح لهم بمقاربة الظواهر التي يدرسونها. كما أن جمع المعطيات لا يشكل المرحلة النهائية بقدر ما يؤدي تحليلها ومعالجتها، وفق المقاربات التي اختارها الباحثون، إلى إنتاج معارف تحدد طبيعتها المبادئ العلمية. غير أن استحضار الأدوات البصرية كممارسة متجذرة في التمثلات الاجتماعية والضوابط والقواعد التي توجه أخذ الصور (RIOM, MEYER, & HUMMEL, 2017)، يطرح العديد من التساؤلات حول طبيعة المعرفة التي ستنتجها وما هي المسافة المسموح بها مع الواقع؟ بل ويعيدنا التساؤل إلى نقطة البداية، حول كيف يمكن تصوير الاجتماعي بشكل عام؟

تقود الأجوبة حول مختلف الأسئلة السابقة، إلى التأكيد على أن اعتماد التصوير الفوتوغرافي والفيديو كتقنيات لإنتاج المعارف، يشكل نقطة تشارك بين الباحثين وصناع الأفلام، مع اختلاف في كيفية إنتاج المكتوب وإنتاج الفيلم العلمي وطريقة نشره. الأمر الذي يستدعي استحضار كل التحديات التي يمكن أن يواجهها الباحثون المعتمدون على هذه التقنيات، والعمل على إبراز إيجابيات ومؤهلات الفيديو مقارنة بالمكتوب(DURAND, 2001/4) .

من هذا المنطلق، يجب التفكير في الصورة والفيديو كنصوص متضمنة لحقائق علمية من جهة، والنظر إلى تطور السوسيولوجيا البصرية كمنهجية جديدة في العلوم الاجتماعية، تعمل على إنتاج معرفة علمية تزاوج بين الكفاءة والثقافة السوسيولوجيتين، وثقافة العين الحادة التي تحملها آلة التصوير في بعدها الحركي والثابت. فاستعمال التقنيات البصرية في مجال العلوم الإنسانية عامة والاجتماعية خاصة، يجب أن يكون حاسما بالنظر لكوننا نعيش "في مجتمع حيث الصورة أصبحت نظامًا للتصور والذكاء العلمي...، وأيضا شكلاً من أشكال التفكير بفعل قوة الأشياء والواقع(CARDI F. , 2018) .

خطاطة رقم: 3 أشكال المعارف المنتجة بواسطة الفيديو (الصورة المتحركة)

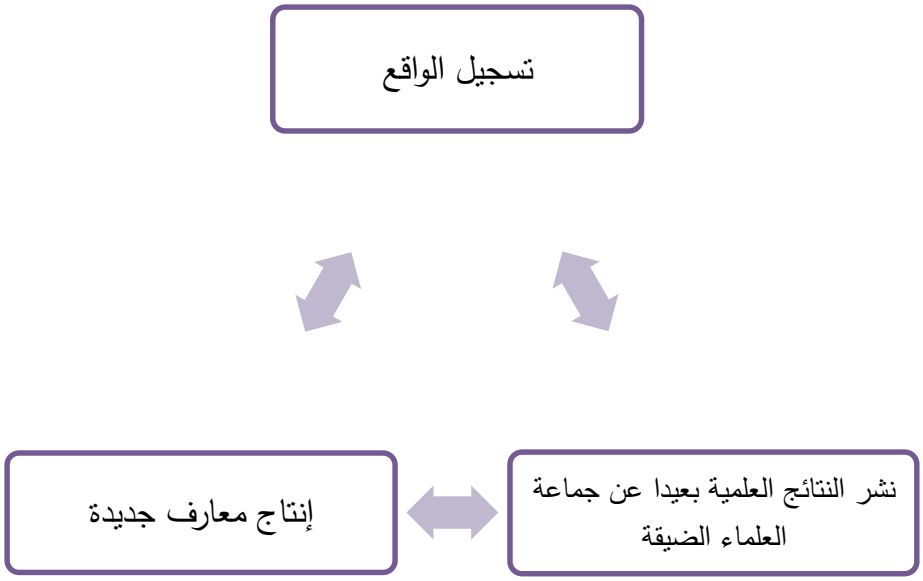

المصدر: بتصرف من الباحثة, **DURAND Jean-Pierre**, Filmer le social ?, **L'Homme et la société**, **2001/4 - n° 142**, pp 30-32.

تلتقي كل العناصر السابقة المتضمن في الخطاطة، وبالرغم من بعض النواقص، حول ممارسة التسجيل التي تعني في العمق الحفاظ على بصمات الأحداث والممارسات والتفاعلات بشكل خام وأقرب بكثير من الواقع، وهو ما سيجعل منها مادة قابلة للمراجعة وتكرار التفاعل معها بشكل حي في لحظات لاحقة، قبل أن تصل مرحلة النشر والتقاسم مع الجمهور الواسع من القراء، على اعتبار أنه لا توجد غاية أخرى للمعرفة البصرية سوى النشر، مثلها مثل باقي أشكال المعرفة المنتجة اعتمادا على تقنيات أخرى غير البصرية، مع اختلاف في التعامل معها، من حيث ردود الفعل المنتجة تجاه كل منتوج علمي.

فإذا كان المنتوج العلمي الذي يقدم في صيغة المكتوب-المقروء عبر الكتب أو المقالات...ألخ، يفتح إمكانية النقد والتشكيك والتأويل، فإن شهادة الصورة-المرئية/المسموعة تؤدي وظيفة الإثبات والتأكيد المباشر. وفي هذا الإطار تطرح العديد من التساؤلات التي تستوجب تعميق النقاش حول وضعية الصورة والصوت، في التبرير والتفسير وفي الحجة العلمية، خصوصا إذا أخذنا بعين الاعتبار التأويلات المتعددة التي ستفرزها والمرتبطة أساسا بالمسارات الاجتماعية، والتجارب الخاصة، كما أيضا بالرأسمال الرمزي الذي يمتلكه الجمهور اللامتجانس المتلقي لها-الصورة-، الأمر الذي يجعل من الكتابة المصورة كتابة جد معقدة أكثر من الكتاب والمقالة.

إن التعقيد، الذي يصاحب قراءة المنتوج العلمي البصري لا يكمن في التقنيات المعتمدة، وإنما يطال الجوانب العلمية الجديدة التي تكشف عنها، وتجعل منها معرفة ليست في متناول فهم الجمهور الواسع، نظرا لما تترجمه من قضايا علمية يصعب تشفيرها من طرف غير المتخصصين. فمشاهدة فيلم سينمائي فني لا يشبه البتة تتبع مراحل معالجة إشكالية في قالب فيلم علمي موجه منهجيا بوعي الباحث(ة) وبمرجعيته(ا) المعرفية. إذ، وبالرغم من تشابه الوسائل المستعملة على المستوى التقني، فإن الفيلم ذي الطابع العلمي موجه لإنتاج وتقديم معارف جديدة حول جوانب غير معروفة عن الظواهر الاجتماعية موضوع الدراسة، في الوقت الذي يقدم الفيلم السينمائي قراءة للواقع المعاش أو المفترض من زاوية فنية محضة.

2-2 الصورة (الثابتة أو المتحركة) في العلوم الاجتماعية: اختيار منهجي لتطوير المعرفة العلمية

تتجاوز الوظيفة الأساسية للتقنيات البصرية مستوى إنتاج المعرفة، كوظيفة متقاسمة بين كل التقنيات التي تلجأ إليها تخصصات العلوم الاجتماعية، إلى تقديم معارف جديدة تكون وثيقة الارتباط بالجوانب التي تكشفها حول الظواهر المدروسة والتي تعجز التقنيات والمناهج الأخرى عن كشفها، كما أن استعمال الباحثين لهذه التقنيات يجعلهم يحظون بحقل أوسع لفضاء للملاحظة. ففضلا عن حرفية الباحث السوسيولوجي(BOURDIEU Pierre, 2005) ،أو أي باحث في العلوم الاجتماعية الأخرى، ودقة عينه العلمية التي تلاحظ ما لا يستطيع عامة الناس ملاحظته، بنفس الوعي والنقد والرغبة في الفهم أو التفسير، فإن استعمال التفكير البصري بتقنياته المتعددة يجعل من كاميراتها أكثر دقة من أي ملاحظ آخر عبر نقلها لكل التفاصيل المسجلة في الصورة.

تمنح الملاحظة المفصلة والدقيقة، التي تسجلها الصورة (الثابتة أو المتحركة) للباحث(ة)، إمكانية المساهمة في إنتاج معارف جديدة في العلوم الاجتماعية. فالتسجيل والتصويريكرران أكثر من مرة، الوضعيات المسجلة أو المصورة حسب رغبة الباحث(ة) في الإنصات بعمق والمشاهدة بوعي، ما تم نقله من الميدان من معطيات مكثفة تتطلب منه(ا) حنكة لمعالجتها. هذه الإمكانية البصرية تفسح المجال أمام العديد من التفاصيل التي تسجل في سياقها، مما يفرض ضرورة أن تكون الصور معبرة لأن استعمالها يقدم فرصة معالجة مختلفة للواقع (DURAND, 2001/4) .

يعطي تسجيل السياق في البحث الميداني، المعتمد على التقنيات البصرية، دفعة قوية أمام تحقق مبدأ الموضوعية في معالجة الظواهر الاجتماعية، حيث يتم تسجيل العديد من اللحظات بعيدا عن التأثير المباشر للباحث(ة) على المبحوثين(ات). فالقول بعدم التأثير، لا يعني قط تغييب التدخل غير المباشر والموجه في التركيز على زوايا دون أخرى أثناء التصوير، فالباحث(ة) لا يصور من أجل التصوير أو لتلبية رغبة شخصية، بل تكون كل الخطوات محكومة بالاختيار المنهجي لزاوية الإشكالية التي يود معالجتها والبحث فيها موجها بذلك الكاميرا لتكون أداة لتحقيق الموضوعية.

وبغض النظر عما يمكن أن يلحق استعمال البعد البصري، في السوسيولوجيا والعلوم الاجتماعية عامة، من انتقادات أو ما يمكن أن تواجهه من عوائق تجعل استعمالها مقيدا، فإن اعتمادها كأدوات لجمع المعطيات من الميدان أو كدعامات بصرية لتقديم نتائج وخلاصات الأبحاث المنجزة من طرف الباحثين(ات)، تجعل منها ضرورة منهجية جديدة في عصر الثقافة البصرية، ومن مواكبة طبيعة الظواهر الاجتماعية المحكومة بالتحولات التي طالت مفاهيم الزمان والمكان ومجال البحث، وغيرها من التحولات التي ساهمت فيها هيمنة الصورة في الحياة اليومية، الأمر الذي يفرض التعامل معها –الصورة- كمعطى ووسيطا ووسيلة لتقديم البحث(La Rocca, 2007/1) .

يعكس الحضور القوي للصورة، في إنتاج المعرفة العلمية في العلوم الاجتماعية بجميع تخصصاتها، بفضل قدرتها على إنتاج الوضوح من جهة، ونظرا للاستعمالات المتعددة الممكنة لها في جميع مراحل البحث العلمي من جهة أخرى. إذ لا يجب أن يغيب عنا ما تخلقه من توقعات مهمة، سواء من حيث النتائج المتوصل إليها أو من حيث كيفية استخدامها. فطبيعة الظواهر الاجتماعية، وكما هو الشأن بالنسبة لجميع التقنيات المعتمدة، تضع أمام الباحثين(ات)، الذين يتبنون البعد البصري منهجا في التفكير والبحث، العديد من العوائق التي تجعل منه خيارا منهجيا ضروريا وصعبا في الآن ذاته. فالصورة الفوتوغرافية تخضع للقراءة السوسيولوجية باعتبارها موضوعا أيضا، ولا يمكن النظر إليها أبدا لذاتها ومن أجل ذاتها من حيث نوعيتها التقنية والجمالية (Bourdieu، 1965)، بقدر ما يجب التوقف عند القيمة المضافة لها، والإمكانيات التي تمنحها للتطور العلمي بالرغم من العديد من الإكراهات التي يواجهها استعمالها.

فما هي أبرز العوائق التي يمكن أن تواجه الباحث(ة) الذي يختار المنهجية البصرية لمقاربة الظواهر الاجتماعية؟ وهل تنعكس طبيعة هذه العوائق على علمية النتائج المتوصل إليها؟

وكيف يمكن تجاوز هذه العوائق لحقيق الإبداع والتجديد العلميين، وبالتالي المساهمة في تطوير المعرفة العلمية؟

رابعا: الصورة البصرية وعوائق الاستعمال في العلوم الاجتماعية

يستدعي الاستعمال المكثف للصور الفوتوغرافية والأفلام الوثائقية العلمية في بحوث العلوم الاجتماعية، خاصة السوسيولوجيا والأنثربولوجيا، أمام الباحثين(ات) الحذرمع استعمالهم لهذه التقنيات البصرية في جميع مراحل البحث، سواء كتقنيات لجمع المعطيات من الميدان، أو كتقنيات شارحة وحجج يستدل بها لدعم وتطعيم الأفكار التي يتم إخضاعها للتحليل، أو باعتبارها حوامل تقدم نتائج البحث في صيغته النهائية.

فتقنيات البحث في العلوم الاجتماعية المعتمدة في الأبحاث الكمية كالاستمارة واستطلاعات الرأي...، أو تقنيات المناهج الكيفية كالمقابلة بأنواعها، سيرة الحياة، المجموعات البؤرية، الملاحظة بالمشاركة...إلخ وغيرها من تقنيات البحث التي يتم استعمالها، تضع أمام الباحثين الكثير من الحدود. تبدأ من هامش الخطأ الذي قد يتسع في البحوث الإحصائية، وتصل إلى حدود طغيان الذاتية في البحوث الكيفية، التي تتوقف بشكل كبير عند التجارب الشخصية للفاعلين وعند الدلالات التي يعطونها لأفعالهم وتفاعلاتهم وللعوالم المحيطة بهم، فضلا عن كل الإشكالات التي تطرح في علاقة مع إمكانية نشر مضامين المقابلات كسير الحياة مثلا من طرف الباحثين، عندما تكون نصوصا كاملة وليس فقط مقتطفات منها، مع وجوب قبول المبحوثين لذلك وفق شروط يتم الاتفاق حولها(BERTEUX, 2010) .

إن التقنيات البصرية كغيرها من تقنيات المناهج الكيفية التي تتوخى الحصول على مضامين حول الإشكالات التي يعالجها الباحثون(ات)، وذلك بغية للكشف عن الخفي المتوارى خلف الممارسات والأفعال الظاهرة للفاعلين الاجتماعيين، تواجه مجموعة من المعيقات أثناء استعمالها. فالأهمية التي تعطى للصورة اليوم كمنهجية وموضوع للدراسة، تطرح العديد من الإشكالات التي ستواجه الباحثين (ات) في العلوم الاجتماعية والمرتبطة أساسا بكيفية التعامل مع المستجدات التي تؤطرها والتي يمكن إجمالها في العديد من العناصر التي سناتي على توضيحها.

1- التقنيات البصرية والإشكالات المنهجية في البحث العلمي

تتمثل الإشكالات المرتبطة باستعمال التقنيات البصرية في العلوم الاجتماعية، في العديد من النقط، تبدأ بتلك التي ترتبط بعلاقة الباحث(ة) بموضوع البحث، مرورا بالعدة المنهجية التي يختارها لجمع المعطيات من الميدان بمعية المبحوثين (ات) المعنيين(ت)، ووصولا إلى تحليل وتقديم النتائج ونشرها.

ومن بين أهم الإشكالات التي تلاحق الباحث(ة) منذ بداية البحث، نستحضر تلك المتعلقة بالمسافة التي يفترض أن تبنى بينه(ا) وبين والمبحوث(ة)، وتطرح هذه المسألة بحدة عندما يكون الموضوع مألوفا بالنسبة له(ا). إنها المسافة التي يصعب تحديدها مقارنةً بحالات المسافة الجغرافية والثقافية التي تنشأ من مواجهة مع الآخر الذي لديه تجربة مختلفة أو ينتمي إلى مجال جغرافي مختلف (Sebag Joyce، 2018).

من الأكيد، أن حدود المسافة بين الباحث(ة) ومجتمع البحث، ليست وليدة الاعتماد على التقنيات البصرية، بل هي حاضرة دائما وبشكل أكبر في الأبحاث الكيفية التي تقتضي تأسيس علاقة قريبة مبنية على الثقة بين الطرفين، كما تقتضي معالجة إشكالية المسافة وعلاقة الباحث بمجتمع البحث/ المبحوثين، استحضار اللحظات التي يلجأ فيها الباحث(ة) إلى الاستعانة بتقنيين في استعمال الأدوات السمعية البصرية نظرا لعدم إتقانها من طرفه (ا)، الأمر الذي سيكون حاجزا وعائقا أمام المعطيات المراد جمعها من الميدان، وهو ما يشبه ما يقوم به الباحث الذي يستعين بمترجم أو وسيط، لأنه لا يعرف لغة المجتمع الذي يدرسه. ففي الحالة الأولى، يعتبر الباحث(ة) وحده من يعرف جيدا الزوايا واللقطات التي يجب تصويرها بحكم علاقته المباشرة مع موضوع البحث، بينما لا يعرف المخرج ذز النظرة التقنية الزوايا الحقيقية للإشكالية التي يود الباحث الاشتغال عليها، ويكون اهتمامه منصبا على ما هو تقني وينتظر إشارة الباحث(ة). وفي الحالة الثانية، لا يدري الباحث(ة) حقيقة ما يترجم له، مما ينعكس على العلاقة مع المبحوثين وعلى نتائج البحث.

يثير حضور "وسيط" إلى جانب الباحث(ة) في الميدان، قد يطرح بعض العوائق، خصوصا أن علاقته تكون وثيقة بالتقنيات فقط، ولا يدخل في علاقة تواصلية مع المبحوثين حول موضوع الدراسة، مما قد يثير لديهم نوعا من التحفظ والحيطة أمام تركيزه على تتبع خطواتهم لتسجيلها وتصويرها. وقد تكون الاستعانة بتقني في التصوير ومتخصص في السوسيولوجيا ويحمل نفس الهم يمكن أن يقرب الفهم الحقيقي عن طريق كل ما بصري، وإن كنا نؤمن أن العلاقة مع إشكالية البحث هي جد خاصة بالنسبة للباحث(ة).

يضاف إلى ما سبق، ما نبهت إليه كتب المناهج في العلوم الاجتماعية من ضرورة ضمان مجهولية هوية المبحوثين(ات)، سواء في المناهج الكمية أو الكيفية، وهي الهوية المرتبطة بالأسماء وبعض المعلومات الشخصية، على أساس أن ما يهم الباحث(ة) هو الآراء والمواقف أو المضامين التي يدلون بها ويقدمونها في علاقة مع الإشكالات التي لها علاقة بهم كعينة. بينما نجد اليوم أن هذا المعيار هو موضع تجاوز، ما دام اختيار التقنيات البصرية التي تقدم المبحوثين في وضعية مصورة ومسجلة في لقاء مباشر ويتحدثون بوجوه مكشوفة، مع ما يطرح بموازاة ذلك من إشكالات قانونية وأخلاقية وتوثيقية.

1-1 الأرشيف البصري وعائق التوثيق

تواجه عملية التوثيق، إشكالية التعامل مع ما سيتم جمعه من الميدان من وثائق على شكل صور أو أفلام، والتي قد يكون حصيلة نوع من الأرشيفات التي أنتجت من طرف أشخاص لم تكن لهم نفس مصالح الباحث(ة)(ISRAEL, 2010) ، ويمكن أن تكون موجهة برغبة شخصية في تسجيل لحظات للذكرى،

وما يطرحه هذا الأمر من إمكانية عدم الارتباط بشكل مباشر باهتمامات الباحث(ة). فضلا عن تنوع الأرشيفات التي توفرها التقنيات البصرية من أرشيفات شفوية، سمعية بصرية، رقمية (في شكل مواقع (site). وتطرح كل هذه الأرشيفات الجديدة مشاكل مرتبطة بتخزينها وأرشفتها، وأخرى حول الطرق الفعالة لتحليلها ومعالجتها، بل وترتبط في جانب بمشكل أثناء استعمالها في التوثيق كيبيليوغرافيا تذيل الإنتاجات العلمية التي ستعتمد بعضا من نتائجها أو مضامينها.

2-1 البحث البصري والإشكالات ذات الطبيعة القانونية

تواجه السوسيولوجيا البصرية، ومعها العلوم الاجتماعية الأخرى عند استخدامهما للمناهج البصرية بشكل عام وللصورة سواء كانت ثابتة أو متحركة بشكل خاص، العديد من الإشكالات القانونية ذات العلاقة بالحق في التقاطها أو جمعها من ميدان البحث، أو بكل ما له علاقة باستعمالها وحفظها ونشرها وأرشفتها. فالمعطيات البصرية كمصادر للبحث العلمي تدفع الباحثين(ات) إلى ضرورة توخي الحذر نظرا للمخاطر التي يمكن أن يحمله الخيار المنهجي الذي اتبعوه (RIOM, MEYER, & HUMMEL, 2017). والتي تشكل المتابعة القانونية التي يمكن أن تلحق الباحثين(ات) واحد من أوجهها، وذلك جراء اللجوء إلى التقنيات البصرية في معالجة إشكالاتهم العلمية.

تبدو الحدود القانونية الفاصلة بين قبول أخذ الصور(الثابتة والمتحركة) واستعمالها لغرض علمي، غامضة إن لم يحسم الباحث(ة) الأمر مع المبحوثين(ات)، حيث تطرح الرهانات الأخلاقية والقانونية المرتبطة بالصور منذ الدخول إلى الميدان إلى حين تقديم النتائج. إلى جانب ما يمكن أن يسفرر عن ذلك من تجليات عديدة ذات الصلة بالحق في الصورة، وحق المؤلف، والنشر كإطار ضروري يحدد العلاقة التي يجب بناؤها مع المبحوثين.

لقد فرضت الإشكالات القانونية نفسها أمام باحثي العلوم الاجتماعية منذ البدء في خيار التفكير البصري، وأدى الضغط القانوني على أبحاث هذه العلوم وما ترتب عنه، خاصة "في البلدان الأنجلوسكسونية، إلى صياغة متسرعة لميثاق "الأخلاقيات المرئية/ البصرية" والتي أسستها جمعيات لعلماء الاجتماع.[1] وكانت أحد مخرجات هذا الميثاق ما ترجمته التوصية الرئيسية التي ركزت على ضرورة الحصول وبشكل منهجي على الموافقة الواضحة والصريحة من المبحوثين حول الموضوعات التي سيتم تصويرها. ويعد هذا الشرط بمثابة مقدمة لتوضيح الاستخدامات المستقبلية التي قد تفرض على مضامين الصور، وأيضًا التأويلات التي قد تخضع لها، والتي تتجاوز في الكثير من الأحيان ما رسمه الباحث من خلال علاقته بالمبحوثين.

الواضح أن، استعمال التقنيات البصرية، يقيد حدود حرية الباحث في التعامل معها ومع المضامين التي ستقدمها له في علاقة مع بحثه(ا)، كما "أن الحصول على إذن لاستخدام الصور المنتجة لا يعفي المبحوثين(ات) من التشكيك في فهم المصورين لعواقب وضع صور لعملهم أو حياتهم الخاصة" (RIOM، MEYER، و HUMMEL، 2017). الأمر الذي سيفرض ضرورة مراقبة المبحوثين لما تم تصويره في مراحل لاحقة من البحث، وحتى قبل عرض نتائج الأبحاث المنجزة.

أمام هذا الوضع، يجد الباحث(ة) الذي يتبنى الخيار المنهجي البصري نفسه متأرجحا بين المأزق القانوني الذي قد تكلفه عواقب وخيمة، وبين الفعالية والقيمة العلمية الإضافية التي يسمح بها استعمال التقنيات البصرية لفهم الظواهر الاجتماعية. ولتجاوز هذه المآزق يمكن للباحث أن يغير اختياره المنهجي بشكل كلي ويكون التخلي عن الصور هو الحل الأفضل لضمان احترام

[1] يتعلق الأمر بالرابطة الدولية لعلم الاجتماع البصري والجمعية البريطانية لعلم الاجتماع.

المبحوثين ومتابعة البحث، كما يجنب هذا الاختيار كلا من الباحث(ة) والمبحوثين(ات) الكثير من المشاكل التي قد تكون انعكاساتها سلبية على قيمة البحث العلمي من جهة، وعلى الحياة الخاصة للأشخاص المبحوثين من جهة أخرى.

3-1 العوائق ذات الطبيعة الأخلاقية

تتوسع دائرة الإشكالات التي ترافق استعمال التقنيات البصرية في البحث العلمي للعلوم الاجتماعية، وإذا كان من الممكن تجاوز البعض منها، بوضع ترسانة قانونية تنظم طرق وكيفية وحدود استعمالاته، فإنه في مقابل ذلك تنزل الإشكالات الأخلاقية بثقلها لتعيق عمل الباحث(ة) بواسطتها-التقنيات- في الميدان، وذلك في علاقة بكيفية تدبير الصور التي تحمل الملامح الواضحة للمبحوثين. وهل من المقبول نشرها، خصوصا وأنها قد تسجل صفاتهم الجسدية في دعامة فوتوغرافية أو فيديو. الأمر الذي يستدعي ميثاقا أخلاقيا بين الباحث(ة) والمبحوثين، ميثاق يستوجب شرح كل الحيثيات المرتبطة بالتقاط الصور أو التسجيل بواسطة الفيديو، واستعمالاتها المحتملة من طرف الباحث(ة) وإمكانية نشرها أم لا. وأيضا كل ما له علاقة بتوقع الباحث(ة) حول تدفق الصور واستخداماتها المستقبلية، بما في ذلك مخارج فصلها عن سياقها، وما قد ينجم عن ذلك من تأثيرات سلبية على حياة الأشخاص الذي تتضمنهم الصورة أو التسجيلات التي يعبرون من خلالها على مواقف لا تكون نتائجها محسوبة لحظات المشاركة في البحث الميداني.

4-1 الإشكالات التقنية: الباحث(ة) بين الحرفية العلمية والفنية

كباقي التقنيات المعتمدة في العلوم الاجتماعية، تواجه الباحثين(ات) الذين يعتمدون التقنيات البصرية في البحث العلمي عدد من الإكراهات ذات الطبيعة التقنية، والتي ترتبط في جزء منها بأثر استعمال هذه التقنيات على جودة المعطيات الميدانية، من خلال مدى إتقان الباحثين (ات) لاستعمالها وتوظيفها. وفي هذا الإطار لا يختلف الأمر عما يفرضه بناء التقنيات القائمة على الحوار مع المبحوثين (ات) دون تصويرهم أثناء اعتماد تقنيات المقابلة بجميع أنواعها.

يختلف استعمال التقنيات البصرية بين الاستعمال العادي الذي يهدف إلى تلبية أغراض شخصية من خلال التوثيق للحظات أو تجارب حياتية عادية تمثل لقطات من الحياة الشخصية أو الاجتماعية في مختلف تجلياتها، وبين الاستعمال العلمي المحكوم والمؤطر بإشكالية يجب أن تبرز طيلة مراحل البحث، مما يفرض ضرورة تمكن الباحث(ة) من قواعد استعمالها كي يتسنى له(ا) عن طريقها جمع المعطيات ذات العلاقة الوطيدة بإشكاليته(ا)، لأن الأمر يتجاوز الوظيفة الاجتماعية للصورة والتصوير الفوتوغرافي(Bourdieu, 1965) .

تطرح العوائق التقنية المرتبطة بعدم جودة تأطير موضوع البحث في الصورة أو الفيديو، ضرورة إعادته، أمام ما يفرضه ذلك من إقناع للمبحوثين مرات متعددة، فضلا عن اختيار الأجهزة ذات الجودة العالية التي تسمح بإيضاح الصور وتقديم المعطيات مقروءة للجمهور. لأنه في النهاية كل إبداع فني ليس سوى انعكاسا لشخصية المبدع الذي أنجزه , .BOURDIEU P) (1965.

2- التقنيات البصرية ومحدودية الاستعمال في العلوم الاجتماعية

يرتبط استعمال التقنيات البصرية، إلى جانب العوائق السابقة الذكر، بالعديد من النقط التي تبرز محدوديتها وتسائل القيمة المضافة لها في دراسة الظواهر الاجتماعية، وأيضا إمكانية وصولها إلى معطيات تعجز التقنيات الأخرى الوصول إليها. ولعل أبرز العناصر التي تترجم هذه المحدودية ما أشار إليه "جون لبير ديغون DURAND Jean-Pierre" حول الفيديو والتي يمكن إجمالها في مضمون الحطاطة أسفله:

خطاطة رقم: 4 مبررات محدودية تقنية الفيديو

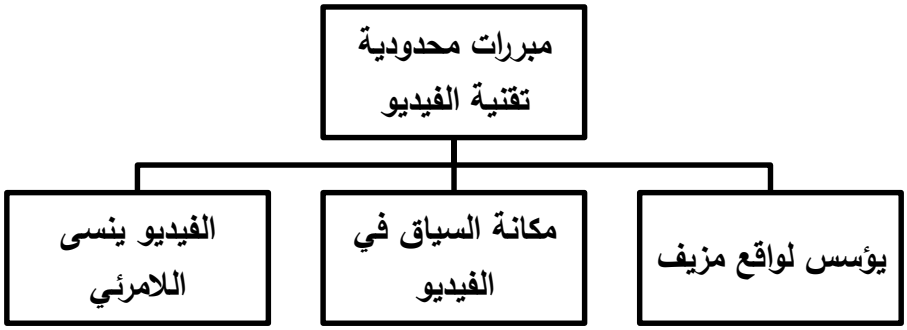

المصدر: وبتصرف: DURAND Jean-Pierre, Filmer le social ?, *L'Homme et la société*, 2001/4 - n° 142, pp : 36-38.

لم تسلم التقنيات البصرية المستعملة في العلوم الاجتماعية من مواجهة بعض الانتقادات الموجهة لمدى مساعدتها للباحثين (ات) في الفهم الأعمق للظواهر الاجتماعية، وذلك اعتمادا على الخواص الإيجابية والإضافات التي تقدمها لأبحاثهم، منذ النزول إلى الميدان مرورا بمحطة التحليل ووصولا إلى تقديم النتائج في صيغة كتابة بصرية.

تتمثل صورة القصور الأولى لاستخدام التقنيات البصرية وعلى الخصوص الفيديو، في كون هذا الأخير ومن خلال منطق الانتقاء الذي يسلكه الباحث(ة)، في محاولة منه لتأطير الكاميرا فقط للجزء الدقيق من الواقع الذي يريده هو وحسب الزاوية التي اختارها، فضلا عن التصنع الذي قد يظهره المبحوثون(ات) في كلامهم أثناء التسجيل، وأيضا ما يلحق المعطيات الميدانية أثناء التوضيب من تغيير، كلها عوامل تجعل من الفيديو تقنية تؤسس لواقع مزيف كما هو متضمن في الخطاطة أعلاه.

إلى جانب ما سبق، تلتقط الكاميرا في بعض الأحيان فقط الجوانب الجميلة، أو تضخم في تجميل الحياة اليومية، وهو ما يجعلها تساهم في خيانة الحياة العادية، (Sebag Joyce، 2018) وتتوسع دائرة التزييف لتشمل تجزيء الواقع الصلب والمتماسك مع التصور اليومي عن طريق قطع لحظة في الواقع المرئي في بعد الزمني.

ويكمن البعد الثاني لمحدودية التقنيات البصرية، في الوهم الذي ألصق بها من طرف الباحثين، على اعتبار أن الفيديو يقدم لنا السياق الحي والشمولي للممارسات والأفعال الاجتماعية، بينما نجد عملية الإخراج النهائي للفيلم المصور قد تدفع الباحث(ة) إلى الانتقاء وتقطيع الصور والأصوات أثناء التوضيب في الوقت الذي يظل فيه السياق لصيقا بموضوعه ويصعب فصله عنه (DURAND, 2001/4)،لأن الصورة في علاقتها بالمجال تكتسي مظهرا مزدوجا. فيمكن للباحث أن يستقبل صورا أوينتجها عبر عملية التصوير والتسجيل، وفي نفس الوقت تعد هذه العملية -إنتاج الصور وصناعتها- تملكا للمجال وتحويلا له، وبشكل ما استهلاكا له (AUGE, 2013).

وأخيرا، يترجم البعد الثالث من محدودية العدة التقنية البصرية، قصورها في تسجيل العديد من اللقطات اللامرئية التي لا يمكن تصويرها والتي تعكسها العواطف والحالة النفسية بشكل عام، فضلا عن الانتباه والنشاط العقلي....إلخ.

فعجز التقنيات البصرية عن اختراق هذه الجوانب يجعلها غير قادرة عن تحقيق "وهم" الشمولية الذي ألصق بها، ويبرز قصور الكتابة التصويرية- البصرية في إظهار الجوانب اللامرئية، والتي يمكن نقلها عبر اللجوء إلى تقنيات أخرى وعبر كتابة غير بصرية.

خاتمة:

تبرز انتقال اعتماد الصورة من وظيفتها كوثيقة إثبات، استعملت طيلة المسيرة العلمية للعلوم الاجتماعية، في أشكال مختلفة – الخريطة، الصورة، المخطوط...إلخ، إلى الصيغة الجديدة نسبيا التي تترجم عبر الكتابة العلمية البصرية، عن الأهمية الكبيرة التي تتميز بها التقنيات البصرية بشكل عام في تطوير المعرفة العلمية، وتقديم إضافات نوعية من خلال ملامسة جوانب الظواهر الاجتماعية التي لم يسعف اعتماد التقنيات الكلاسيكية في إظهارها أو المساهمة في فهمها.

وتتميز التقنيات البصرية بمجموعة من الخصائص النوعية، التي تحيل على مواكبة العلوم الاجتماعية للتحولات الاجتماعية التي ضمن أبرز مظاهرها الثورة الرقمية، غير أنها تكشف في نفس الوقت، عن جوانب متعددة ومتناقضة لاستعمالها في العلوم الاجتماعية والسوسيولوجيا بشكل خاص. لقد رافق هذا استعمال التقنيات البصرية العديد من التساؤلات المرتبطة بصفتها العلمية ، وبمدى موضوعية نتائج الأبحاث التي تعتمد عليها في محطات البحث العلمي، إلى جانب العديد من الإكراهات القانونية والأخلاقية والتقنية التي تواجه الباحثين عند اعتمادها.

إن التناول الموضوعي للتقنيات المعتمدة على الصورة في جميع محطات البحث العلمي، يجعلها لا تختلف عن باقي التقنيات الأخرى المعتمدة في العلوم الانسانية والاجتماعية بجميع تخصصاتها، لكون الإشكالية لا تكمن فقط في التقنيات المعتمدة ولا في الطريقة التي تتقدم بها النتائج العلمية، بقدر ما يرتبط الأمر بالأساس بتعقد الظاهرة الإنسانية وانفلات جوانب كثيرة منها من أي عدة منهجية تم اعتمادها.

تسمح دراستنا للصورة واستعمالاتها المتعددة كتقنية وكتابة في مجالي السوسيولوجيا والأنثربولوجيا على الخصوص، بالخروج ببعض الخلاصات التي تؤكد من جهة على التكامل الواضح بين الكتابة النصية والكتابة البصرية، على اعتبار هذه الأخيرة أيضا هي تقدم نصوصا حاملة لمضامين، كما أنها أيضا أكثر وأسرع إبلاغا للرسالة وبشكل مباشر، خصوصا عندما تكون الكتابة البصرية حاملة لنص متحرك –فيديو/ فيلم وثائقي من جهة أخرى.

إلى جانب التكامل بين النصين، المكتوب والبصري، نستخلص أن تجديد العدة المنهجية في العلوم الاجتماعية هي ضرورة تفرضها الحاجة لمواكبة التحولات المجتمعية ذات الصلة بالحياة اليومية للفاعلين الاجتماعيين، وتستجيب في نفس الآن لطبيعة الظواهر الاجتماعية التي أفرزتها الثورة الرقمية (الجريمة الإلكترونية، التسوق الألكتروني وعرض كل المنتجات في صور،...).

وفي الأخير، نؤكد أن تطور المعرفة العلمية وقدرتها على فهم الظواهر الإنسانية والاجتماعية، يفرض على الباحثين إبداع تقنيات جديدة قادرة على ملامسة الجوانب الخفية واللامرئية في الظواهر الاجتماعية الجديدة، وهو الأمر الذي لن يتحقق إلا في إطار تكامل بين تخصصات عدة، وتعاون وثيق بين باحثين كثر في إطار الجماعة العلمية.

Bibliographie

Agier, M. (2015). *Anthropologie de la ville.* PUF.

AUGE, M. (2013). *L'impossible voyage : Le tourisme et ses images.* Ed. Payot et Rivages.

BERTEUX, D. (2010). *L'enquête et ses méthodes : Le récit de vie, (sous la dir. de : DE SINGLY, François)* (éd. 3ème édition). ARMOND COLIN.

BLANCHIT, A. e. (2007). *L'enquête et ses méthodes, L'entretien* (éd. 2ème édition). ARMOND COLIN.

BOURDIEU Pierre, e. a. (2005). *Le métier de sociologue* (éd. 5ème édition). Mouton de Gruyter.

Bourdieu, P. (1965). "Culte de l'unité et différences cultivées". Dans B. P. dir., *Un art moyen: essai sur les usages sociaux de la photographie* (p. 42). Les éditions de Minuit.

BOURDIEU, P. (1965). «La définition sociale de la photographie ». Dans P. (. Bourdieu, *Un art moyen : essai sur les usages sociaux de la photographie.* Les Editions de Minuit.

BOURDIEU, P. (1982). *Ce que parler veut dire.* Fayard.

CARDI, F. (2015). "Une démarche inductive en sociologie visuelle : le commentaire analytique". *"Approches inductives" , vol:2* (N° 2), pp. 67-94.

CARDI, F. (2018). « Les sociologues-photographes et leurs photographies: un corps à corps fécond ». Dans S. J.-P. Joyce, *Sociologie visuelle et filmique le point de vue dans la vie quotidienne* (pp. 158- 175). Édi. GENOVA UNIVERSITY PRESS.

DE SINGLY, F. (2012). *L'enquête et ses méthodes, Le questionnaire* (éd. 3ème édition). ARMOND COLIN.

DURAND, J.-P. (2001/4). Filmer le social ? *L'Homme et la société , 4* (n° 142), pp. 27-44.

GARRIGUES, E. (2000). *L'écriture photographique : Essai de sociologie visuelle.* L'Harmattan.

ISRAEL, L. (2010). « L'usage des archives en sociologie ». Dans P. S. dir.), *L'enquête sociologique* (pp. 167-185). PUF.

JOLY, M. (2013). *Introduction à l'analyse de l'image* (éd. 2ème édition). Armand Colin.

La Rocca, F. (2007/1). introduction à la sociologie visuelle. *Sociétés* , pp. 34-40.

PAUWELS, L. (2000). Taking the Visual Turn in Research and Scholarly Communication. Key Issues in Developing a More Visually Literate (Social) Science. «*Sociology*» (15), pp. 7-14.

RIOM, L., MEYER, M., & HUMMEL, C. (2017). « Une « éthique visuelle » pour les usages de l'image dans l'enquête en sciences sociales ». (C. (. Burton-jeangros, Éd.) *in: L'éthique (en) pratique : la recherche en sciences sociales* (N° :34), pp. 51-70.

ROUILLE, A. (2005). *La photographie : Entre document et art contemporain.* Ed. Gallimard.

Sebag Joyce, D. J.-P. (2018). *« De la vie quotidienne à la sociologie par l'image ».* (D. J.-P. SEBAG Joyce, Éd.) GENOVA UNIVERSITY PRESS.

غودار, إ. (2019). *أنا أوسيلفي إذن لأنا موجود بتحولات الأنا في العصر الافتراضي*، (ب. سعيد, Trad.) المركز الثقافي للكتاب.

Doi: doi.org/10.52133/ijrsp.v3.36.7